ما التفكـــــير ؟

تعد كلمة (تفكير) من الكلمات الغامضة التي نستخدمها ، ولكن نعجز عن شرحها ، ويلاحظ أن كثيرا من العلماء يؤكد على خاصتين هامتين في التفكير ، وهما : تكامل الخبرات السابق   ة وتنظيمها من ناحية ، واكتشاف الاستجابات الصحيحة من ناحية أخرى .

ويقول (همفري) : إن التفكير هو :" ما يحدث في خبرة الكائن العضوي سواء أكان إنسانا أم حيوانا حين يواجه مشكلة ، أو يتعرف عليها ، أو يسعى إلى حلّها " ويرى (بارتليت) أن التفكير" هو عملية توسيع الدليل على النحو الذي يلائمه بحيث يتم ملء الفجوات فيه ، ويتم هذا بالانتقال من خطوات متتابعة مترابطة يمكن التعبير عنها آنيا ، أو فيما بعد ".

ويركز بعض علماء النفس على الجانب النفسي حين يعرفون التفكير بأنه :

" استخدام الوظائف النفسية لحل مشكلة من المشكلات وصياغة حلول لها في أحكام ، ثم يقوم العقل بمحاكمتها من أجل الفوز بالحل النهائي ".

ويعرف بعض المناطقة التفكير بأنه: " ربط العقل بين حدين أحدهما الموضوع والآخر المحمول ". أو هو " مجموعة الأساليب التي يتبعها العقل لمعرفة السبب واكتشافه ".

وحين نستعرض تعريفات التفكير فإنما نريد التفكير العلمي إذ هو وحده التفكير المجدي الذي يمكننا من الاستنتاج من المقدمات أو الوقائع ، ومن ثم فإن بعض التربويين عرّفه بأنه : " كل نشاط عقلي هادف مرن يتصرف بشكل منظّم في محاولة لحل المشكلات ، وتفسير الظواهر المختلفة والتنبؤ بها والحكم عليها باستخدام منهج معين يتناولها بالملاحظة الدقيقة والتحليل ، وقد يخضعها للتجريب في محاول للوصول إلى قوانين ونظريات ".

وهذه التعريفات كلها تدور حول قضية واحدة هي : **تردد العقل في جملة من المعطيات توسلا إلى ما يرتبط بها من المجهول بطريقة منهجية** .

****

تحسين التفكير

إن على المسلم أن يعتقد اعتقادا جازما أنه ما من ظرف أو حالة أو موضوع إلا يمكن إدخال شيء من الإصلاح عليه بإكثار ما فيه من خير وإيجابية ، أو بتقليل ما فيه من شر وسلبيات . إن إدخال مثل هذا الاعتقاد في مركبنا العقلي ضروري جدا لمقاومة سلسلة الإحباطات التي يتعرض لها المسلم في حياته . وإني لأظن أن الخلط بين الإرادة الشرعية والإرادة الكونية هو أهم مصادر الشكوى من الزمان التي كانت ، ولا زالت إحدى اللوازم التي لا نمل من تكرارها ، حيث وردت أحاديث صحيحة تدل على تقهقر الأمة في أحوالها كلما تقدم الزمان ، وقد اختلف العلماء في تفسير كثير منها هل يكون الإدبار عاما ، أو على الأغلب ؟ وهل المقصو   د التدهور العام ، أو على مستوى بعينه كالحكام والعلماء ، ومهما قيل في تفسيرها فإن ذلك لا يعني سوى الإرادة الكونية ، وما دل من الآثار الصحيحة على شيء منها صدقناه ولكن مدار التكليف ليس على ذلك ، وإنما على الإرادة الشرعية .

ثم إن الطائفق الظاهرة على الحق تمثل النموذج الذي يحمل شعلة الهداية المتوهجة على اختلاف الأمكنة والأزمنة ، والتي تلتقي في شخصها الأصالة والمعاصرة على نحو فريد . كما أن المجدد القربي يمثل إمكانات التحسين كلما ساءت

أحوال المسلمين لضعف تمسكهم بدينهم ، أو انحدار معاشهم الدنيوي ، حيث يُوجِد الوظائف المتجددة للمبادئ العليا ، فيبدو الدين وأهله في حالة من الشباب الدائم .

وما أروع قوله صلى الله عليه وسلم :" إن قامت الساعة وبيد أحكم فسيلة ، فاستطاع ألا تقوم حتى يغرسها فليغرسها ، فله بذلك أجر " . إنها إرادة العطاء وفعل الخير ،وتحسين فرص العيش حتى عند النفخ في الصور ، ووقوف البشرية على عتبة الآخرة !!..

وانطلاقا من هذا فإنني أعتقد بأننا مطالبون اليوم – أكثر من أي وقت مضى – بأن نقوم بمحاولة تحسين طرق التفكير لدينا ، والاندفاع في هذه السبيل إلى أبعد مدى ممكن .

كيف نحسن التفكير ؟؟

لابد من القول ابتداء : إن قدراتنا العقلية على التحليل والتركيب وإدراك المترابطات متفاوتة ، مما يجعل عمليات التحسين تؤدي إلى نجاحات متفاوتة ، ولكن الذي يراه كثير من العلماء أن مستوى التربية الإيجابية وثراء المناخ العام أكثر تحكّما في جدوى التفكير وفاعليته من تميّز القدرات الخاصة ، وهذا ما يجعل إمكانات التحسين أكبر مساحة وأسهل تحقيقا .

القراءة هي البداية . .

لحكمة بالغة كان أول ما نزل من القرآن الكريم .

(اقرأ باسم ربك الذي خلق)

ودستورنا الخالد (القرآن) مشتق من القراءة ، وأعظم اختراع اخترعته البشرية كان الكتابة ، والكتابة غير ذات قيمة إذا لم تعقبها القراءة ، فقد تكاثفت خبرة الأجيال على اتساع أمداء الزمان والمكان ، في الكتابة ، فهي الجسر الذي يؤمن التواصل بين الأجيال ، فإذا لم يتهيأ لنا أن نقرأ ما كتب حرمنا من نعمة تراكم المعرفة الذي يمكننا من تجاوز كينوناتنا الثقافية . إن القراءة تمكننا من توسيع مساحات الرؤية ، حيث نرى كل نتائج الأعمال السابقة الإيجابية والسلبية ، وذلك يمكننا من امتلاك (البصيرة) التي من لوازمها القدرة على خطو الخطوة المناسبة ، والتي تمنحنا الحصانة من أن نلدغ من جحر واحد مرتين أو مرات ...

ماذا نقرأ ؟

لو قدِّر للواحد منا أن يقرأ (في المتوسط) كل أسبوع كتابا ، وقدِّر له عمر مديد تمكن فيه من أن يقرأ ستين سنة لكان قد اطلع على ثلاثة آلاف كتاب ، وهو رقم متواضع للغاية إذا ما قورن بمئات الألوف من الكتب التي تعج بها مكتبات العالم ، والتي هي في تصاعد مستمر ، هذا الوضع يجعل التدقيق في نوعية ما نقرأ جزءا من حرصنا على الحياة نفسها !.

إننا حين نقرأ نستثمر العقل والوقت في القراءة ، ولابد أن يكون هذا الاستثمار مربحا بقدر المستطاع لاسيما أن عالمنا الإسلامي يفيض بالكثير من المؤلفات التي لم يتعب أصحابها في إعدادها والإعداد لها ، مما يجعل كثيرا منها لا يختلف عما يقال في مجالس التسلية والترويح عن النفس !!.

وقد كان علماؤنا الأقدمون يقولون (العالم من عرف كل شيء عن شيء وشيئا عن كل شيء) ، وهذا هو بغيتنا في هذا الزمان ، كما كان في كل زمان ، إذ إن القراءة في كل ما هبّ ودبّ ستعني معرفة خاطفة سطحية ، أو ستعني شذرات من العلم تفقد الترابط ، وتفتقر إلى الانتظام في مفاهيم عامة ، وهذا لا يختلف كثيرا عن الجهل !!. وفي مقابل هذا فإن أصحاب الاختصاصات (المغلقة) يفتقرون غالبا إلى الرؤية المجتمعية الشاملة ، مما يجعل وعيهم بذواتهم

ومجتمعاتهم معدوما أو محدودا ، ويجعلهم ألعوبة في أيدي محترفي التجارة بالعلم وثماره ، ودوائر تأثيره ممن يمكن أن نسميهم بالشخصيات العامة . فمن المستحب إذن أن يخصص الواحد منا 70% من قراءاته لمجال محدد يصبح إماما فيه ، يستطيع من خلاله رفع عتبة تخصصه ، وإضافة شيء إلى التراكم المعرفي ، ويخصص باقي الجهد للاطلاع على العلوم المختلفة .

ومن المعلوم أن في كل لون من ألوان المعرفة روّادا نابهين لهم إسهامات متميزة في تنهيج تلك العلوم ، والدفع بها إلى الأمام ، وعلى مائدتهم يعيش الألوف من الباحثين الأقل موهبة وخبرة ، فمن الخير إذن أن نقرأ لألئك ، ونغرف من النبع مباشرة ، وليس من الصعب التعرف عليهم ، فالمختصون في كل علم وفن يعرفونهم كما يعرفون أبناءهم ؟

وحين يختار المرء تخصصا ما ليكون محور مطالعاته فإن عليه أن يختار كتاباً يعد مرجعا في ذلك التخصص ، وهذا يتم من خلال شهرة الكتاب أو الاطلاع على قوائم المراجع . وحين يشرع الإنسان في القراءة الواعية التي يريد أن يسهم من خلالها في التخطيط للمعرفة فعليه أن يكون بين يديه دائما قلم وورقة يسجّل فيها المشكلات والقضايا التي يعتقد أن المؤلف لم يوفّها حقها من البحث ، أو التي يشعر أنه قادر على أن يوجد لها بعض الحلول الإضافية . فإذا ما انتهى المرء من ذلك الكتاب صار إلى مرجع آخر في التخصص المختار ، ويحسن أن يكون ذلك المرجع من الكتب التي تعرض وجهة نظر مختلفة ، حتى لا يقع المرء ضحية لوجهة نظر واحدة ، هي عند أهل الاختصاص موضع نقد وجدل – ولا يوجد مختص سُلِّمَ له بكل ما يقوله – فإذا انتهى منه صار إلى قراءة كل ما كتب حول الموضوع ، ولكن تكون القراءة حينئذ سريعة مع إمكانية الإغضاء عن بعض أجزاء تلك الكتب ، إذ المراد هو الوقوف على بعض المشكلات الجديدة أو الحلول المقترحة لها .

ولابد من القراءة الناقدة لكل ذلك ، فلا نسمح للجديد من الأفكار أن يتسرب إلى أذهاننا دون محاولة لاختبار صدقه وفحص دلالته . وهذا لن يكون ميسورا للمبتدئ غالبا ، ولكنه سيكون تهيئة للأرض البكر ، كي يزرع فيها التفكير المستقل . وبعد مدة من الزمن نشعر أننا امتلكنا نوعا من الحس الغريزي الباطني الذي يمكننا من وزن الأفكار وتثمين الكتب التي نطلع عليها ، والمرحلة المعرفية التي وصل إليها الكاتب ، فمن خلال قراءة صفحة من كتاب نستطيع أن نعرف المردود الثقافي الذي سيعود علينا من وراء قراءة ذلك الكتاب ، وحينئذ نكون قد قبضنا على حاسة الاستشعار المعرفي التي ستساعدنا كثيرا في اختزال الأعداد الهائلة من الكتب ، وتحديد ما نحتاجه منها في مشروعنا الثقافي والمعرفي . وتلك هي بداية امتلاك منهج خاص بنا في التفكير . وإذا ما شعرنا بضرورة العودة إلى قراءة كتاب قرأناه ، فمن الأفضل أن نعود إليه بعد سنة أو أقل أو أكثر ، وحينئذ فسنقرؤه بعيون جديدة ، وسنجد نتيجة لنمونا الثقافي أننا قادرون على تسليط بعض الأضواء الناقدة عليه أكثر من المرة الأولى ، بل قد نشعر في بعض الحالات أننا قادرون على الإضافة إليه .

ما بين القراءة والتفكير :

جرت عادة الكثيرين منا أن يقوموا بالقراءة السريعة دون أن يسجّلوا شيئا في كراسة أو بطاقة ، وكثير منا أولئك الذي لا يفكرون فيما يقرؤو ن ، فتكون مهمتهم نقل ما في السطور إلى الصدور طبق الأصل دون أين يتركوا شيئا من بصماتهم عليه ، وفي هذا يقول أحد المفكرين : إذا كنت نقرأ لتوفر على نفسك التفكير ، فقد يكون من الأحسن لك أن توقف القراءة تماما ، فالتدخين أقل من ذلك ضررا . وهروبا من القراءة إلى التفكير فقأ (ديمو كريتس) عينيه حتى يتوقف عن القراءة ، ومن ثم يستطيع أن يفكر .

إن القراءة لا تصنع مفكرا عظيما ، وليست هي البديل عن الفكر ، وكما يقول (جون لوك) : إن القراءة لا تمد العقل إلا بمواد المعرفة ، لكن التفكير هو الذي يجعل ما نقرؤه ملكا لنا . ومن هنا فإن بعض المفكرين كان يتجه إلى

تغليب التفكير على القراءة ، وبعضهم يتجه إلى تغليب القراءة ، ولكن من المتفق عليه أنه لابد من تخصيص وقت للقراءة ووقت للتفكير ، ويمكن أن تغلب القراءة في البداية حتى نهيئ لعقولنا المادة التي ستقوم بتشكيلها ، إذ لا يمكن لطاحون أن تصنع شيئا دون وجود شيء تطحنه ؟ فإذا ما شعر المرء انه صار يملك منهجا معرفيا ورؤية واقعية ومستقلة أمكنه أن يخصص أكثر وقته للتفكير ، وسيكون ذلك أجدى من كثرة القراءة . وبشكل عام فإذا قرأنا ساعة أمكن أن نخصص ثلث ساعة للتفكير فيما قرأناه ، وسيكون وقت التفكير في هذه الحالة وقتا (للبرمجة) لما قرأناه ، حيث يصير الدماغ في هذه الحالة إلى ترتيب المعلومات التي نقلتها له العين في سياقات مفاهيمنا الخاصة ، وتعزيز الملاحظات التي كوناها من قبل .

وعلينا أن تختار للتفكير الأوقات المناسبة ، وأنسب الأوقات هي أوقات البكور ، حيث يكون الدماغ قد أخذ حاجته من الراحة أثناء النوم ، على حين يكون التفكير أقل كفاءة أثناء الشعور بآلام بدنية ، كما أن التفكير في أوقات النعاس يؤدي إلى اختلاط التفكير بالخيال . وحين نفكر فقد يقف الفكر عند عقبة كأداء تشمخ أمامه كالسد المنيع ، وحينئذ فإن من الأفضل أن نترك التفكير .وننصرف إلى عمل آخر ، لنترك فرصة لاختمار المعلومات مع الخواطر التي خطرت لنا في سبيل الحل . ومما يروى في ذا السياق أن (إبراهام لنكولن) كان حين تواجهه مشكلة استعصت على الحل يلجأ مع مساعديه إلى سرد الأقاصيص الشعبية بعيدا عن أجواء المشكلة الكؤود .

وحين نفعل ذلك فهذا يعني أننا نفكر تفكيرا مركزا ، إذ ليس التفكير المركز —كما هو شائع — أن يبقى العقل عاكفا على شيء واحد ، وحول فكرة واحدة ، أو في مكان واحد ، وإنما يعني تناول مشكلة أو هدف باستمرار ، ووضعه نصب عيني الشخص ، وهذا يعني إبقاء فكرنا متحرج ا نحو نهاية محددة ، ومن ثم فإن أفضل تعريف للتفكير المركز أنه انتباه طويل أو مدعَّم .

لكن ينبغي أن نتأكد قبل الشروع في صرف الاهتمام الكلي إلى شيء والبدء في التفكير فيه ؛ من أن ما نريد التفكير فيه يستحق فعلا ذلك، لأهمية التوصل إلى شيء جديد فيه ، فمن الخطل وإضاعة الوقت أن نركز على حل مشكلات لم توجد بعد عتبات علمية لحلها ، ولا نملك أي مدخل نشعر معه أننا وضعنا أرجلنا على بداية الطريق . ومما يساعد على التفكير المركز أن ندون الأفكا ر التي نعثر عليها ، أو تخطر لنا حول ما نفكر فيه ، ومن الضروري مراجعة تلك الأفكار التي نكتبها المرة تلو المرة وذلك حتى نبقي على مسارات تفكيرنا الأصلي ، حتى لا نبدأ باتجاه وننتهي إلى اتجاه آخر .

إن مراجعة الأفكار التي سجلناها ستعني إيجاد روابط بينها ، والتمهيد لتصنيف منثورها بشكل جيد ، وإذا ما خطرت فلنحاول أن ننطقها ، فالنطق خير من التفكير الصامت ، فنحن حين ننطق ما نفكر فيه نجعله أكثر دقة وانسجاما مع الأفكار الأخرى حول المشكلة ، كما أن النطق يزيد حصيلتنا من المفردات اللغوية .

****

" التفكير الموضوعي "

لابد من القول ابتداء : إن (الموضوعية) تمثل إحدى أهم سمات التفكير العلمي ، حيث إنها ذات أثر فعال في جميع عملياته ، حتى إن التفكير العلمي تجاه بعض المواقف يكون هو التفكير الموضوعي ذاته . ومن هنا فإني أعتقد أنه لا يمكن أن ندرك جذور مشكلة ما ، أو صياغتها صياغة صحيح ، ثم عرضها ، ثم السعي إلى حلها ما لم نتحل بهذه الفضيلة ! ولست أبعد في النّجعة ، ولا أخطئ الرمية إذا ما قلت : إن فقدنا للموضوعية في التعامل مع الأفكار والمواقف والأشخاص والأشيا ء كان من أكبر العوامل التي أدت بنا إلى التخلف والتفكك والتنازع في تاريخن ا المديد . وسوف ينجلي صدق ما نقول — بحول الله تعالى — من خلال صفحات هذا البحث .

وعلى الرغم من خطورة هذه القضية وأهميتها فإني لم أجد من أفردها بالبحث والتمحي ص ، وردّ كثير من أصولها ومظاهرها على المبادئ العليا التي أكرمنا الله بها – وهذا في حدود علمي – فكان هذا البحث محاولة حثيثة في سبيل بلورة هذا الموضوع ، وأسأل الله – تعالى – العون والسداد .

وبإمكاننا أن نعرف التفكير الموضوعي بأنه : "مجموعة من الأساليب والخطوات والأدوات التي تمكننا من الوقوف على الحقيقة ، والتعامل معها على ما هي عليه بعيدا عن الذاتية والمؤثرات الخارجية ". ولا يغيب عن البال أن الذين يدّعون التحلي بالتفكير الموضوعي كثيرون ، بل قلما نجد من يعترف أنه غير موضوعي ، وهذا على مستوى الأفراد والجماعات والدول والشعوب . ولا ريب أن الموضوعية ليست امتلاك منهج يجهد الإنسان نفسه للحصول عليه ، ثم يسترخي مطمئنا لما أنجزه !! إن الموضوعية علم وإخلاص ، قدرة وإرادة ، فهم وتقوى . وقد يمتلك المرء ناصية الفهم والعلم والقدرة ، لكن التحلي بالإخلاص والإرادة يحتاج إلى جهاد طويل لا يتوقف إلا عند مفارقة هذه الحياة . وهذا الجهاد من أصعب ما يعانيه المرء وأشقّه ، حيث يعيش في عا لم تسيطر عليه الأهواء والنزعات ، وحيث يجد المسلم نفسه يضحي دون أدنى مردود مادي أو أدبي يعود عليه ! إن امتلاك زمام التفكير الموضوعي ليس بالأمر المذلّل ، فقد نستنفد الكثير من الطاقات دون أن نشعر أننا اجتزنا هذه العقبة بنجاح!.

****

"بناء القرآن الكريم الخلفية التاريخية للموضوعية "

تتمثل رحمة الله تعالى للعالمين في ذلك التتابع العجيب لرسالات السماء من أجل هداية الخلق ، وتعريفهم بوظائفهم في هذه الحياة ، وحتى ينسجم الشكل مع المضمون فإن الخطوط العريضة في دعوات الأنبياء – عليهم الصلاة والسلام – ظلت واحدة ، من توحيد الله – تعالى – وعبادته والإحسان إلى الخلق وكف الأذى وإعمار الأرض إلخ ... وقد شكّل ذلك التجانس سياقا عاما وبعدا تاريخيا فريدا لكل من أكرمه الله بالانتفاع بهدي الأنبياء . ومن ثم فإن الذي يؤمن بمحمد صلى الله عليه وسلم لا يكون قد آمن بنبي فحسب ، لكنه يكون قد وضع نفسه في السياق العام لتاريخ البشرية ... وفي هذا يقول الله تعالى : (**شرع لكم من الدين ما وصى به نوحا والذي أوحينا إليك . .**) وقد عني القرآن الكريم بأن يوجز لنا أنشطة الأنبياء – عليهم الصلاة والسلام – في تبليغ الرسالات ، كما عني ببيان مواقف أقوامهم منهم ، والحوارات التي تمّت بينهم ، وذلك حتى يكوّن ذلك جذور الأحكام والتعليمات الخاصة بهذه الأمة . وهذه قضية مهمة في تجذير المستند الفلسفي للأحكام والإجراءا ت التكليفية من النواحي المنطقية والعرفية والنفسية . وحين نرى أن التاريخ في جوهره ليس أكثر من جملة من المبادرات الفذّة استتبعت عددا من الاقتداءات ندرك أهمية مثل هذه الخلفية ! ونحن هنا نسوق جملة من الأمثلة التي توضح الخلفية التاريخية التي سردها القرآن الكريم ، وهو يقوم ببناء التفكير الموضوعي لدى المسلم ، ونحن لا نعمد هنا إلى الاستقصاء ، وإنما إلى مجرد التمثيل . و لا بد من الإشارة هنا أن تلك النماذج الهادية قد تكون بيانا من رسول ، كما قد تكون عتبا على تصرف أمة من الأمم السالفة ، وقد تكون حكاية لحوار وجدال بين أطرف شتى ..

1. معرفة حدود الذات :

إن من أهم مفردات الموضوعية أن يدرك الإنسان أبعاد أية مشكلة أو موقف يريد أن يتعامل معه التعامل الصحيح ، لكن الأهم من ذلك أن يدرك المرء أبعاد ذاته ، إذ الجهل في هذا وخيم العواقب ، حيث يؤدي في بعض الأحيان إلى الكبر والغرور والتهور ، وقد يؤدي في أحيان أخرى إلى نكران الذات وعدم الاستفادة من إمكاناتها المقدروة لها . وفي هذا السياق نجد القرآن الكريم يخبرنا عن حنو نوح عليه السلام على ولده فيسأل الله تعالى نجاته من الغرق :

(**رب إن ابني من أهلي وإن وعدك الحق وأنت أحكم الحاكمين**)

وهنا يأتي التنبيه له من الله تعالى بالكفّ عن سؤال أمور لا يعرف حقيقة حالها أخطأ هي أم صواب :

(قيل يا نوح إنه ليس من أهلك إنه عمل غير صالح)

وتأتي الإنابة السريعة إلى الله تعالى والاعتصام به من تكرار ذلك :

(قال رب إني أعوذ بك أن سألك ما ليس لي به علم وإلا تغفر لي وترحمني أكن من الخاسرين)

إن هذا تعليم لهذه الأمة بأن يعرف كل منها حدود ذاته وقدر نفسه وإذا ما أخطأ ، أو قصّر فإن طريق الأوبة نيرة لاحبة !!

2. **التثبت :**

من ثوابت الموضوعية التثبت من حقيقة ما يصادفه المرء في حياته قبل أن يتخذ موقفا تجاهه ، وقد ركز القرآن الكريم على هذا الجانب حتى لا يقع المسلم في سلسلة من الأخطاء نتيجة الفهم الخاطئ أو القاصر ، وقد عرض القرآن الكريم هذا الموضوع بأساليب شتى حتى يصبح حقيقة راسخ ة ، فهؤلاء فتية الكهف الذين ربط الله على قلوبهم يقولون **(هؤلاء قومنا اتّخذوا من دونه آلهة لولا يأتون عليهم بسلطان بين)** وهذا يوسف يقول **(ما تعبدون من دونه إلا أسماء سميتموها أنتم وآباؤكم ما أنزل الله بها من سلطان)**

ويعرض الكتاب العزيز في صورة أخرى توبيخ الذين يجادلون في أمور لا علم لهم بها ، كما فعل اليهود والنصارى حين كان كل منهم يحاول جعل إبراهيم – عليه السلام – منسوبا إلى ملته ، فقال سبحانه :

(هاأنتم هؤلاء حاججتم فيما لكم به علم فلم تحاجون فيما ليس لكم به علم والله يعلم وأنتم لا تعلمون)

3. **نبذ الآبائية :**

كثيرا ما يكون تراث الآباء سببا في تعطيل العقل والاستفادة من خير طارف يخالف ما كان عليه السابقون ، ومن ثم فإن الإنسان مكلف بامتلاك الميزان الذي يمكنه من تقويم تركة أسلافه ، وإنزالها في المنزلة اللائقة بها ، لئلا يقدس ما كان عاريا عن كل مقومات البقاء سوى ميزة القدم !وقد ضرب لنا إبراهيم – عليه الصلاة والسلام – المثل المنير في موالاة الله تعالى والحقّ الذي آتاه والانسلاخ عما ساد في مجتمعه في ضلال وفي هذا يقول تعالى :

(وما كان استغفار إبراهيم لأبيه إلا عن موعدة وعدها إياه فلما تبين له أنه عدو لله تبرأ منه إن إبراهيم لأواه حليم

لقد عانى الأنبياء –عليهم الصلاة والسلام – على اتساع أمداء الزمان والمكان من مشكلة تقديس أقوال الآباء والأجداد وإيثارهم على الهدى ، ومن ثم فإن الرسل الكرام شنوها حربا لا هوادة فيها ضد صنميّة ميراث السابقين حتى تتهيأ عقول الناس لقبول الدعوات السماوية الجديدة التي تخالف جلَّ ما كان يسود في مجتمعاتهم من خرافات وأساطير مما تناقلوه كابرا عن كابر دون أدنى نظر أو تمحيص .

4. **إنصاف الناس وعدم هضم حقوقهم :**

عندما ينشب الخلاف ، وتثور العداوات يصبح كثير من الناس عاجزا عن الإبصار بعينين ، فهو لا يرى إلا المثالب والمساوي ، وحين تهب رياح المودة فإن كثيرين أيضا لا يبصرون إلا بعين الرضا ، ومن هنا جاءت دعوة شعيب لقومه واضحة صريحة للخلاص من هذه النقيصة حين نصح قومه:

(ويا قوم أوفوا لمكيال والميزان بالقسط ولا تبخسوا الناس أشياءهم ولا تعثوا في الأرض مفسدين)

5. **النظرة التفصيلية :**

من أكبر الأخطاء التي تنافي الموضوعية إصدار الأحكام العامة في القضايا الإنسانية حيث يتشابك عدد من العوامل في إيجاد الظاهرة الواحدة ، وحيث يصبح الربط بين ظاهرة ما وبين ظواهر أخرى معقدا غاية التعقيد ، مما يستدعي الأناة في إصدار الأحكام ، وتفصيل ما يحتاج إلى تفصيل . وفي هذا الصدد يقول الله سبحانه وتعالى :

(ضرب الله مثلا للذين كفروا امرأت نوح و امرأت لوط كانتا تحت عبدين من عبادنا صالحين فخانتاهما فلم يغنيا عنهما من الله شيئًا وقيل ادخلا النار مع الداخلين . وضرب الله مثلا للذي آمنوا امرأة فرعون إذا قالت رب ابن لي عندك بيتًا في الجنة ونجني من فرعون وعمله ونجني من القوم الظالمين)

فقد وجد الكفر في بيت نبيّين من الأنبياء الكرام ،وخرج الإيمان من بيت أعدى أعداء الله ، وفي ذلك تبصرة لأولي الألباب حتى لا يحكموا بالإيمان أو الكفر لأهل بلدة أو قبيلة أو بيت بصورة عامة .

6. نقد الذات :

إن نقد الذات يمثل إحدى قمم الموضوعية ، فهو إقرار ببشرية بني آدم التي لا تستطيع أن تخرج من دوائر الجهل والقصور والخطأ – إلا من عصم الله – ، وفي هذا لسياق يحدثنا الله تعالى عن أبينا آدم وأمنا حواء حين أكلا من الشجرة وبدت لهما سوآتهما ، وعرفا الوقوع في المخالفة ، فإنهما أسرعا إلى الإنابة قائلين:

(ربنا ظلمنا أنفسنا وإن لم تغفر لنا وترحمنا لنكونن من الخاسرين)

والتوبة لا تكون إلا بعد اكتشاف خطأ ، واكتشاف الخطأ لا يكون إلا بعد صحوة عقل ، أو صحوة ضمير ، وكل منهما أمارة النّضج والرّقي ! وهذه السنّة التي سنّها أبونا آدم لنا ستظل خميرة يستنبت فيها الصالحون من أبنائه صنوفا من الأوبات والمراجعات !.

وفي هذا موسى – عليه السلام – يعترف بخطئه حين قتل القبطي نصرة للإسرائيلي ، ويقول :

(رب إني ظلمت نفسي فاغفر لي فغفر له إنه هو الغفور الرحيم)

وهذه بلقيس ملكة سبأ تعلن توبتها من عبادة الشمس قائلة :

(رب إني ظلمت نفسي وأسلمت مع سليمان لله ب العالمين)

إن نقد الذات سيظل مقياسا دقيقا للوعي بالذات وللوعي بالماضي والحاضر ، والأمة التي تحرم منه تحرم من خير كثير !.

7. المرونة الذهنية :

إن الإحاطة بموضوع ما وجذوره وأسبابه وعواقبه ووجوه ارتباطه مع موضوعات أخرى تجعل المرء يتحلى بفضيلة المرونة الذهنية ، التي توجد للإنسان مساحات واسعة للحركة يوازن فيها بين الخير والشر وأنواع الخير وأنواع الشر ، فيحاول من خلالها النفاذ إلى تحقيق خير الخيرين ودفع شر الشرّين ، كما يحدد بها علاقته بذلك الموضوع ، وما يمكن تجاوزه منه ، ومالا يمكن ، وإليك بعض النماذج القرآنية التي تؤسس هذه السمة الحميدة :

ذهب موسى عليه السلام لمناجاة ربه ، وترك أخاه هارون خليفة في قومه ، وقد قام السّامري بما قام به من صياغة عجل لبني إسرائيل حتى يعبدونه من دون الله ، وقام هارون بنصحهم وموعظتهم ، لكنهم لم يقبلوا منه ،وحين عاد موسى قال : **(يا هارون ما منعك إذ رأيتهم ضلوا . ألا تتبعن أفعصيت أمري . قال يا بنؤم لا تأخذ بلحيتي ولا برأسي إني خشيت أن تقول فرّقت بين بني إسرائيل ولم ترقب قولي)**

فقد خاف هارون أن تتفرق كلمة بني إسرائيل إن تركهم ولحق بموسى .. وهذا الفهم كان نتيجة موازنة بين اللحاق بأخيه والتبرؤ مما فعل بنو إسرائيل وتشتت شملهم ، فآثر الإقامة معهم ، والعجل يعبد على مرأى منه على الفرقة والشتات .

بناء المجال النظري للموضوعية

تتسم الجوانب المختلفة للإنسان بالمرونة ، كما تتسم بالتعقيد والتشابك ، ومصدر المرونة أن أواسط جلّ القضايا الإنسانية ذات تغييرات متصلة ، مما يجعل رسم الحدود الفاصلة فيها غير دقيق ، فنلجأ إلى رسم حدود لفظية أو تقديرية أو افتراضية أو تحكمية ،حتى نتمكن من التعامل معها ، فالحدود الفاصلة بين الكرم والتبذير ، وبين التهور والشجاعة ، وبين الجبن والحذر ، وبين الثبات والتصلب ، وبين المرونة والتذبذب هي في أكثر الأمر من قبيل ما ذكرنا . وبمقتضى المرونة فإن علينا أن نترفق في إصدار الأحكام ، وذلك بالبعد عن التعميم والمقولات الصارمة .

والتعقيد يفرض علينا الحذر والأناة حيث لا تتبدى لنا الحقائق والنواميس المتصلة بالإنسان دفعة واحدة ، وإنما على مراحل متتابعة وفق ما نبذل من جهد ووقت في استكشافها ، وسوف تفنى الإنسانية ، وقد تركت وراءها جملة من الحقائق التي لم تتوصل فيها إلى الكلمة الأخيرة . إن سبل البحث تضيق وتلتوي كلما سرنا قدما في البحث في المجالات الإنسانية عامة ، والنفسية خاصة . على حين يجد الباحثون عكس ذلك في العلوم الطبيعية ، حيث إن الانتشار المعرفي الرأسي والأفقي يمد كل منهما في سلطان الآخر ، ويتعاونان على اختزال المسافات بين النظرية والتطبيق .
هذا وذاك يستدع ي بناء فضاء نظري واسع المدى يسمح للمرونة الإنسانية واختلاف ظروف البشر أن تأخذ كل أبعادها ، لكنها في النهاية تقف عند حدود واضحة المعا لم ، تفصل بين القيم وأضدادها ، وتوقف الإنسان على مراشد الحق التي ليس بعدها إلا الضلال !..
وبإمكاننا أن نسمي ذلك الفضاء (بالقاعدة القيمية)، أو الخلفية الثقافية ، أو المزاج العام ، إنه التربة الصالحة للاستنبات ، أو الرحم التي تتخلق فيها الموضوعية ، وتتغذى مما فيها ، وتحتكم إليها ...

1 - البعد عن الظن :

يعد البعد عن الظن والتخمين أهم خطوة على طريق الموضوعية ، وهي الخطوة التي إن زلّت فيها القدم لم يستقم ما بعدها من خطوات أبدا ، حيث إن الأساس الواهي يجعل البناء القائم عليه في حكم المنهار مهما كان شامخا ، بل إن كلفة زائدة ستكون باهظة كلما شمخ وعلا! ومن هنا جاءت النصوص الكثيرة التي تحوط حس المسلم من كل جوانبه بغية ترشيد الخطوة الأولى وإحكام الأساس قبل الخوض في اتخاذ المواقف وتحليل الأخبار واستخلاص النتائج ، ولا ينبغي أن يساورنا الشك أن مناهج العلم الحديث أخذت هذه الفضيلة عن المنهج الإسلامي الذي أرساه القرآن الكريم .
ويمكن بلورة هذه القضية في النقاط التالية :

أ. طالب القرآن أهل الكتاب وكفار قريش بالكف عن الجدل فيما لا علم لهم به (**يا أهل الكتاب لم تحاجون في إبراهيم وما أنزلت التوراة والإنجيل إلا من بعده أفلا تعقلون . ها أنتم هؤلاء حاججتم فيما لكم به علم فلم تحاجون فيما ليس لكم به علم والله يعلم وأنتم لا تعلمون**)

فقد زعم اليهود أن إبراهيم كان يهوديا ، وزعم النصارى أنه كان نصرانيا مع أنه كان قبل موسى وعيسى بمئات السنين ، فكيف يكون تابعا لملة جاءت بعده ؟

ب. قرر القرآن في مواضع عدة عدم صلاحية الظنون في بناء المعلومات ،وشنّع على أولئك الذي يركنون إليها ، حيث إن الظن متأرجح بين الشك واليقين ،بل إن من الظنون ما يكون أوهاما !! (**يا أيها الذين آمنوا اجتنبوا كثيرا من الظن إن بعض الظن إثم**)

ت. أمر الله تعالى المؤمنين أن يستعملوا عقولهم في المجالات التي يمكنها أن تتوصل فيها إلى الحقيقة ، فالغيبيات التي لم يروها ، ولم يأتهم بها خبر صادق لن يكون الكلام فيها أكثر من اللغو والعبث ، ولن يكون أكثر من الأوهام والظنون . وفي عدم زج العقل في موضوعات لا يملك أدنى مقدمات لها تكريم له ، كما أن في ذلك حفظا للمنهج من أن يخرج عن الإطار العلمي الصحيح ؟ ولا يخفى أن إنكار علماء الغرب في بداية عصر النهضة الحديثة لكل ما هو وراء المادة لم يكن أكثر من رد فعل على زجّ كثير من رجالات الكنائس وعلماء اللاهوت النصارى للدين في قضايا ليست من مجاله ، فكذلك زجّ العقل في غير دوائره إهانة له وحطٌّ من قدره .

ث. يعلمنا النبي صلى الله عليه وسلم الموضوعية حين يشنّع على أولئك الذين يحدثون الناس بكل ما سمعوه دون نظر شخصي في ذلك المسموع ، ولا ريب أن كثرة نقل الأخبار والأقوال مظنّة للوهم والنسيان ، كما أنها مظنة للتزيد وشوب الهوى ، ومن ثم قال عليه الصلاة والسلام : (كفى بالمرء كذبا أن يحدث بكل ما سمع) ، كما ذم أيضا أولئك الذين يروون أخبارا لا سند لها ، ولا يعرف من هو قائلها ، وذلك توسلا بها إلى مآرب شخصية ، حين قال : " بئس مطية الرجل زعموا " . ولفظة (زعموا) إنما تستخدم عند عدم وثوق الناقل من صحة ما ينقل ، وكم حقق الأعداء من مآرب عن طريق بثّ الشائعات بين المسلمين حيث يتلقفها كثيرون من عشاق (زعموا) لنشرها وتعميمها !!..

2. التجرد من الأهواء :

لا ريب أن البعد عن الظنون أسهل من الناحية الفنية والموضوعية من البعد عن الأهواء ،حتى إن كثيرا من العلماء يرون أن التجرد من الهوى والشؤون الخاصة في بحث القضايا الإنسانية عامة غير ممكن في كثير من الأحيان ، وإدراك الإنسان لاختلاط هواه بآرائه قد يكون غير متيسر للإنسان نفسه لدقة المسالك والمسارب في هذا الشأن . لكن نعمة الهداية تجعل سيطرة الإنسان على أهواء نفسه أكثر إمكانا ، وحلية التقوى تزيد في البصيرة ، كما قال تعالى (**يا أيها الذين آمنوا إن تتقوا الله يجعل لكم فرقانا**)

وباب الأهواء واسع ينتظم كثيرا من ألوان الزيغ عن الموضوعية ،لكن سنعرض تحت هذه الفقرة إلى ما نعده اللباب تاركين ألوانا أخرى لعرضها تحت عناوين أخرى بغية المزيد من الإيضاح .

أ. أمر الله تعالى المؤمنين بإقامة موازين العدل ، وإن خالف ذلك ميولهم ، إذ أن الهوى عدو مبين للعدل والإنصاف ، فقال (**يا أيها الذين آمنوا كونوا قوّامين بالقسط شهداء لله ولو على أنفسكم أو الوالدين أو الأقربين إن يكن غنيا أو فقيرا فالله أولى بهما فلا تتبعوا الهوى أن تعدلوا وإن تلووا أو تعرضوا فإن الله كان بما تعملون خبيرا**)

قال ابن كثير : أي لا يحملنّكم الهوى والعصبية وبغض الناس إليكم على ترك العدل في شؤونكم ، بل الزموا العدل على كل حال !!

ب. بين القرآن الكريم في بعض المواطن أن الولاء ينبغي أن يكون باستمرار للمنهج المنزّل مهما كان مخالفا للهوى ، وأن ما ظاهره في نظر البشر الشّر قد لا يكون كذلك ، وما ظاهره الخير قد لا يكون كذلك ، وذلك حتى يتّهم المؤمن نفسه في كل موقف ، ويبحث عن شرعية مواقفه مخافة أن ينزلق في متاهات الأهواء والشهوات . وفي هذا يقول القرآن الكريم : (**كتب عليكم القتال وهو كره لكم وعسى أن تكرهوا شيئًا وهو خير لكم وعسى أن تحبوا شيئًا وهو شر لكم والله يعلم وأنتم لا تعلمون**)

وفي النهاية فإنه ما يمكن أن يقال : إن أسوأ ما يفسد الدين والدنيا ، والأفراد و الجماعات شيئان : الهوى والجهل ، أو الشبهات والشهوات ، والله وحده العاصم من ذلك .

2 -الانسجام الذاتي :

من أهم مرتكزات الموضوعية الانسجام الذاتي ، وهو مطلب ضروري لحياة مستقرة آمنة مثمرة ، وهذا الانسجام ينبغي أن يتجلّى في اتساق أقوال المرء مع معتقداته ، وفي أفعاله مع أقواله . وهذا الانسجام من سمات الإنسانية الفاضلة ، بل من سمات الرجولة الحقّة . وحين تفقد الأمة الانسجام الذاتي تتعقد حياتها ، وتفقد المبادئ والقيم العليا لديها فاعليتها ، فالكلمة الطيبة تصبح غير ذات قيمة ، إذ إن صاحبها لا يعبر بها عن معتقداته ، أو إنه يفرغها من زخمها بعمل ما ينافيها ! والأعمال الفاضلة كأعمال البر والخير والإحسان لا تمسي موضع جذب اهتمام المجتمع ونشاطاته ، لأنها معلولة بعلل تنزع منها معناها الإنساني النبيل ، وهكذا ... والخلاصة أن الإنسان حين يفقد انسجامه الذاتي يخوض حربا أهلية هو ساحتها وأدواتها ، ومحاربوها ، والنتيجة تدمير الفرد والجماعة ، وتحويل المجتمع إلى ركام من البشر ، ليس أمامه إلا السقوط في البربرية ! ومن هنا أشاد الإسلام بهذه الفضيلة واستخدم أقسى عبارات الإنكار والتوبيخ لأولئك الذين يخرجون عليها ! ويمكن أن تحتلي معالم ذلك في النقاط التالية :

أ. حين بدرت بوادر من بعض المسلمين تنافي الانسجام المتوقع توفّره في حياتهم لفت نظرهم القرآن الكريم إلى ذلك بعبارة قاسية ، حتى لا يتكرر الخطأ ، فقد ذكر المفسرون أن بعض المسلمين كانوا يقولون : لو نعلم أحب الأعمال إلى الله تعالى لبذلنا أموالنا وأنفسنا ، فدلّهم الله على الجهاد ، فلما ابتلوا به يوم أحد فرّوا ، فأنزل :

(يا أيها الذين آمنوا لم تقولون مالا تفعلون. كبر مقتا عند الله أن تقولوا مالا تفعلون)

ب. ركزت تعاليم الإسلام على فضيلة الصدق الذي يعني : " مطابقة الكلام لاعتقاد متكلمه " . وقد جاءت آيات كريمة كثيرة وأحاديث نبوية مستفيضة بضرورة اقتران الإيمان بالعمل الصالح، حتى يتحقق الانسجام المطلوب ، كما وردت نصوص كثيرة تحذر من الكذب وارتكاب المعاصي ، وهي على درجة من الشيوع والذيوع تجعل ذكرها من باب التعريف بالمعروف .

3 -المسؤولية :-

تمثل المسؤولية دعامة من دعامات الموضوعية ، حيث يتحمل الإنسان مسؤولية ما قام به من عمل في حدود شروط موضوعية معينة ، وله ثمرة جهده الخاص ، وهذه الثمار محفوظة له على المستوى الأخلاقي والتشريعي ، وهذا وذاك لا يقتصران على الدنيا أو الآخرة ، وإنما هـ و تقدير عام يلازم وجود الإنسان من لحظة التكليف إلى مالا نهاية . إن الموضوعية تتبدى في تحديد المسؤولية المشتركة بشكل جيد فيما لو تصورنا تحمل الإنسان لأخطاء الأجيال السابقة ، أو جواز أن يقطف غيره ثمرة جهده وهكذا ... ويمكن أن نبلور هذا الجانب من جوانب الموضوعية في النقاط التالية :-

أ. يولد المرء بريئا من الإثم والخطيئة حتى لو كان وجوده ثمرة لقاء خاطئ بين رجل وامرأة ، وليست هذه البراءة مقررة على المستوى الفردي ، بل إن بني آدم جميعا برآء مما فعله أبوهم آدم حين أكل من الشجرة ، فليس للإنسان حاجة إلى فداء ولا إلى مخلّص ، فهو بريء الذمّة إلى أن يشغلها بكسبه الذاتي !

ب. كما يولد المرء بريئا من تبعات أعمال آبائه وأجداده — وإن كان يمكن أن يلحقه بعض الضرر الدنيوي– فإنه لا يسوغ له أن يحمّل تبعات أخطائه لآبائه وأجداده ، فإن نعمة الهداية ، ونعمة العقل تمكنان المرء من قرار الاختيار الصحيح .

وفي الحديث الشريف "لا يؤخذ الرجل بجريرة أبيه ولا بجريرة أخيه " " لا يجني والد على ولده ، ولا مولود على والده ".

ج. لا معنى للمسؤولية دون ربطها بالجزاء ، لأن هذا ينبه المسلم إذا ما لقي أزمة أو انتكاسة ما في الدنيا إلى مراجعة الأسباب التي سببتها فربما كانت معصية وقع فيها ، أو غفلة أو تقصيرا فرط منه ؟ وحين يفعل المسلم ذلك فإنه يكون موضوعيا في فهم واقعه ومشكلاته ، وذلك خير من إلقاء أسباب واقعة على القدر ، أو على الأعداء أو سوء الحظ ...(**ليس بأمانيّكم ولا أمانيّ أهل الكتاب من يعمل سوءا يجز به ولا يجد له من دون الله وليا ولا نصيرا**) .

5. مراعاة التكاليف الشرعية للطاقات البشرية :

لم يكتف الإسلام أن يطالب الناس بأن يكونوا موضوعيين ، لكنه علّمهم في أخص ما جاء به كيف تكون الموضوعية حيث راعت أحكام الشريعة الغرّاء الطبيعة البشرية ، وما متع به الإنسان من طاقات وإمكانات ، وممكن أن نشخص ذلك في المفردتين التاليتين :

أ. ليس في الإسلام ما يصعب اعتقاده أو القيام به ، (**لا يكلف الله نفسا إلا وسعها**) ، ومن أمثلة مظاهر رفع الحرج : قصر الصلاة وجمعها في السفر ، جواز التيمم في ظروف معينة ، وجواز الإفطار في رمضان للمريض والمسافر ...وفوق كل هذا هنالك مساحات واسعة من العفو ، أو ما يسمى ب (الفراغ القانوني) حيث إن ما كان يتغير باختلاف الزمان والمكان جاء مجملا ، حتى يتاح للمجتهد مجال يتحرك فيه ، كالصور التشخيصية للعدل والشورى وأنظمة الحكم والإدارة ...

ب. عدت الشريعة الغراء الغلو في الدين والإفراط في التنسك تشويه لجمال الدين وإخلالا بتوازنه وإعناتا للخلق ، وذاك لا يختلف كثيرا عن التفلّت من الدين وأحكامه السمحة . دخل رسول الله صلى الله عليه وسلم المسجد فإذا حبل ممدود بين الساريتين ، فقال :" ماهذا الحبل ؟ قالوا : هذا حبل زينب ، فإذا فترت تعلقت به ، فقال النبي صلى الله عليه وسلم : لا ، حلّوه ، ليصل أحدكم نشاطه فإذا فتر فليقعد "

6– البعد عن الذاتية :

الخلط بين الذات والموضوع ، بين الأشخاص والمناهج قضية قديمة جديدة عانت منها البشرية ومازالت تعاني ، وحين جاء الإسلام كانت الحقيقة في الجزيرة العربية موزعة على أرصدة الزعماء والأثرياء والأوثان والأشباح ...ومن ثم فإن المعركة التي خاضها الإسلام من أجل سيادة المنهج والحقائق البينة على الأشخاص كانت على درجة عظيمة من السعة والتوتر . ويمكننا أن نجلو عمل الإسلام في القضاء على الذاتية بما يلي :

أ. وضوح المنهج على مستوى القيمي والمبادئ والأنظمة والإجراءات ، فجعل أعلى القيم وأساسها هو الإيمان ، فإذا فقد عند شخص لم يعد هناك مجالات للمفاضلة بينه وبين غيره ممن آمن . أما المعيار الذي يتفاضل على أساسه المسلمون فهو التقوى : (**إن أكرمكم عند الله أتقاكم**)

ب. لما كان الإسلام يهدف إلى سيادة الحقيقة ، بذل النبي صلى الله عليه وسلم جهودا مكثفة حتى يستقر في حس المسلم أن المنهج فوق كل اعتبار ، وأن النبي صلى الله عليه وسلم نفسه ليس مستثنى من ذلك . فقد عاتب القرآن النبي على بعض اجتهاداته ، كانصرافه عن ابن أم مكتوم وقبوله فداء الأسرى يوم بدر ،، ومما ورد في هذا السياق قوله صلى الله عليه وسلم (لا تطروني كما أطرت النصارى عيسى) . فالارتباط الأساسي بالله عزوجل والوحي الذي أنزله ، ومن هنا فإن من لم يفقه هذا ارتد عن الإسلام بعد وفاة النبي صلى الله عليه وسلم ، أما سيد الراشدين أبو بكر –رضي اله عنه – فقد قال :" يا أيها الناس من كان يعبد الله فإن الله حي لا يموت ، ومن كان يعبد محمدا فإن محمد قد مات ".

7- احترام الاختصاص :

إن من الموضوعية بمكان أن يعرف الفضل لأهله ، وأن يعترف بالتقدم لكل من تبحر في معرفة حقيقة من الحقائق سوء أكانت شرعية أم كونية أم تاريخية . ومن المعلوم أنه لولا تقسيم العمل ، لما أمكن أن نرى التقدم العلمي الذي أنجزته البشرية اليوم على هذه الصورة ، فلا خيار أمام من يريد التقدم الرأسي في علم من العلوم سوى أن يخصص أكثر جهده ووقت له . والمكافأة المعنوية التي تنتظر ذلك المتخصص هي تلقي أقواله واجتهاداته في تخصصه بالكثير من الإصغاء والتقدير والقبول . ويمكن أن نلاحظ في هذه القضية ما يلي :

أ. الحث على استقاء المعلومات من مصادرها الموثوقة ، وتحكيم أهل الاختصاص عند التنازع (**فاسئلوا أهل الذكر إن كنتم لا تعلمون**)

ب. أن يفتي العالم في حدود علمه وألا يدعي علم ما لم يعلم ، لأن في ذلك تضليلا لناس ، وصرفا عن الحقيقية ، وفي هذا يوجه القرآن الكريم النبي صلى الله عليه وسلم إلى الكشف عن دوائر معرفته ، حتى يعلم الناس مجالات معرفتهم ، فلا يتجاوزها حيث يقول : (**قل لا أقول لكم عندي خزائن الله ولا أعلم الغيب ولا أقول لكم إني ملك إن أتبع إلا ما يوحى إلي**)

8- الدقة :

تعد الدقة مظهرا من مظاهر الموضوعية ، حيث أنها تمثل خلاصة الوعي الموضوعي بقضية ما ، والإنسان كلما ترقّى في سلم الحضارة صار أكثر دقة ، والعلم نفسه يزداد اعتماده على اللغة الكمية يوما بعد يوم ، بل إن علاج المشكلات الاجتماعية يحتاج في كثير من الأحيان إلى معلومات إحصائية تكشف عن حجم المشكلة وما سبق من محاولات لحلها .

فالصلاة موقوتة بأوقات محددة ، ومثلها الزكاة ، والصيام كذلك ... ومن هنا غرست تعاليم الإسلام في نفس المسلم كل ما يجعله دقيقا في كل حركة في حياته إذا ما هو نفذ إلى ما وراء الظاهر ....

9- الإنصاف :

لعلنا نلمس سمات الإنصاف في المفردات التالية : –

أ. إذا كان وضع البشر على التنوع ، فإن الإسلام يعلمنا أن من الخطأ البيّن إصدار حكم واحد على قبيلة أو أهل ملة أو بلدة ، لأن ذلك التعميم سوف ينطوي على ظلم واضح ، فلا يمكن أن تكون العدوانية أو الخيانة أو البخل صفة ملازمة لقبيل كبير من البشر ، وفي هذا الصدد يقول تعالى : (**ليسوا سواء من أهل الكتاب أمة قائمة يتلون آيات الله آناء الليل وهم يسجدون**) ، إن من أهل الكتاب الأمناء و أهل الخيانة ، ومنهم التقي بحسب تعاليم دياناتهم ، ومنهم الخارج عن كل الرسالات ، هذه النظرة تبقي هامشا بين أهل الملل المختلفة للحوار ، وتتيح للمسلم نظرة تفصيلية تنجيه من براثن التعميم .

ب. الاعتراف للآخرين بما يملكون من خصائص تميزهم عن غيرهم وهذا الاعتراف لا يولد إلا من رؤية شاملة للحياة ، ذلك لأن النقد ليس بيان المثالب والعيوب ، لكنه أيضا الكشف عن مساحات الخير والجمال .

ت. ينقل الإسلام الناس نقلة واسعة ليضعهم في قمة الإنصاف لبعضهم بعضا حين يرشد المسلم على أن ينظر إلى الناس بالمنظار عينه الذي يجب أن ينظروا إليه به ، لأن المشاعر الإنساني ة واحدة ، وحاجات البشر النفسية والاجتماعية واحدة أو تكاد ، ومن ثم فإن الإنصاف أن نسلم المسالك التي تؤمن تلك الحاجات للجميع . وفي هذا يقول النبي صلى الله عليه وسلم ": فمن أحب أن يزحزح عن النار ، ويدخل الجنة فلتأته منيته ، وهو يؤمن بالله واليوم الآخر ، وليأت إلى الناس الذي يحب أن يؤتى إليه ".

10 – التعامل مع الحقيقة :

أ. يوجهنا الإسلام إلى عدم الوقوف عند الصور والأسماء والأوصاف غير المؤثرة في النتائج، وذلك لأن عدم تجاوز ذلك سيعني خروجا عن الموضوعية المطلوبة ، كما سيعني السّطحية والشكلية المضللة ، فلون قميص الطالب ، أو اتجاهه نحو وجهة معينة أثناء أداء الامتحا ن أو انتسابهإلى حي معين كل أولئك لا يؤثر في الدرجة التي حازه في الامتحان ، ومن هنا وجب أن تحيّد عند الحديث عن الأسباب المؤثر ة في نجاح الطالب أو رسوبه . إن جوهر المسلم كامن في قلبه وسلوكه وما عداه فلا كسب للمر ء فيه ، ومن ثم فلا وزن له عند الله عزوجل.

ب. كما يأمرنا القرآن الكريم ونحن نتعامل مع الحقائق أن نتجاوز الظاهر إلى ما وراءه ؛ فإنه يأمرنا في بعض المواقف أن نصحح النّظر إلى الظاهر نفسه حيث يكون في بعض الأحيان خادعا ، أو يكون بحاجة إلى مزيد تأمل ، حتى لا نخرج بانطباعات خاطئة (**والذين كفروا أعمالهم كسراب بقيعة يحسبه الظمآن ماء حتّى إذا جاءه لم يجده شيئا**) إن كثيرا من الأعمال ظاهرها النفع لأصحابها ، لكنها في الحقيقة سراب لم يرد به وجه الله تعالى !

ج. إعطاء الحقيقة ما يتناسب مع حجمها من الاهتمام والعناية ضرب من ضروب الموضوعية المعاشة على الصعيد العملي ، وحين نتصفح الكتاب العزيز والسنة المطهرة نجد أن هناك قضايا رئيسية احتلت مساحات واسعة منهما كقضية التوحيد والإيمان باليوم الآخر ونعيم الجنة وقصص الرسل في التبشير والإنذار . ونجد هناك من القضايا ما لم يذكر إلا مرة واحدة كالغيبة مثلا ، ونجد منها ما لم يذكر إلا مرات قليلة كالسرقة ؟؟؟ ولا يعني هذا عدم اهتمام الإسلام بصيانة أموال الناس مثلا ، وإنما كان ذلك ، لأن هذه السلوكيات تابعة لإيمان الإنسان ومعتقده ، والجرائم على اختلاف أنواعها إنما تنحسر في المجتمعات على مقدار ما يتمدد الإيمان في قلوب الناس ومن ثم كانت العناية بالأصل .

د. قد تكون الحقيقة مرّة ، وحينئذ فإن الإنسان قد يصرف التفكير عنها ، أو قد يتجاهلها لكن ذلك لا يغيّر من طبيعتها ، وهو قد يؤجل مواجهتها ، لكنه لا يستطيع إلغاءها أو التخفيف من وطأتها ، ومن ثم فإن القرآ ن، الكريم يغرس في حس المسلم ضرور ة مواجهة الحقائق بشجاعة وثبات ، فذاك جزء من الموضوعية التي لا يليق بالمسلم الانحراف عنها (**أحسب الناس أن يتركوا أن يقولوا آمنا وهم لا يفتنون . ولقد فتنا الذين من قبلهم فليعلمنّ الله الذين صدقوا وليعلمن الكاذبين**)

هـ. تشتبك المصالح والمفاسد في واقع الإنسان ، ويجد المسلم في كثير من الأحيان قلة الخيارات المتاحة ، و صعوبتها ، وهنا لابد من موازنة دقيقة كيما يدفع شر الشّرين ويحقق خير الخيرين . وحين يمتلك المسلم هذا النوع من الفقه فإن هذا يعني أنه قادر على التكيّف والحركة مهما كانت المساحات التي أمامه ضيقة . إن الموضوعية ألا نقف مكتوفي الأيدي كلما واجهتنا مشكلة ، لأن ذلك سيعني ألا نتقدّم ، بل ألا نملك القدرة عل الاستمرار !
ومن هنا جاء بناء فقه الموازنات الذي أثمر مئات الأحكام التفصيلية على يد علماء المسلمين فيما بعد . وفي هذا يقول الله تعالى :

(**من كفر بالله من بعد إيمانه إلا من أكره وقلبه مطمئن بالإيمان**) فقد أكره المشركون عمار بن ياسر على قول كلمة الكفر فجاء الرسول صلى الله عليه وسلم وهو يبكي ، قال له : كيف تجد قلبك ؟ قال : مطمئنا بالإيمان ، قال : فإن عادوا فعد .

و. إن من جملة التعامل مع الحقائق ترتيب الأولويات في القضايا التي تحتاج إلى معالجة أكثر ، وإن من النصوص التي أرست قواعد هذا الأصل قوله تعالى : (**يا أيها الذين آمنوا عليكم أنفسكم لا يضركم من ضل إذا اهتديتم إلى الله مرجعكم جميعا فينبئكم بما كنتم تعملون**) فقد كانت نفوس بعض المسلمين تذهب حسرة على الكفرة يتمنون دخولهم في الإسلام ، فقيل لهم : عليكم أنفسكم بإصلاحها والمشي بها في طرق الهداية ، ولا يضرّكم الضُّلال عن دينكم إذا كنتم مهتدين .
إن البداية الصحيحة في عملية الهداية هي الاهتمام بالنفس من أجل تشكيل نواة للقدوة في الإحسان والإصلاح ، فإذا ما تحقق للإنسان ذلك ، أو جلّه نهض ليبشر ، وينذر ويصلح من يلوذ به من الأقرباء والجوار . وقد أمر الله نبيه صلى الله عليه وسلم بذلك حين قال (**وأنذر عشيرتك الأقربين**)
إن هذه الأولويات تكون على مختلف المستويات ، فحين يغزو الأعداء أرض قوم فإن دفعهم يكون هو أفضل الأعمال ، وحين تجتاح الناس مجاعة مهلكة فإن إطعام الطعام يكون أفضل من نوافل الحج والعمرة والصيام وهكذا ...
إن ترتيب الأولويات على مستوى الأمة ليس بالأمر الهين لاسيما حين يشعر الناس أنهم يدورون في حلقة مفرغة ، لا يرون فيها منفذا للخروج ، لكن أهل الخبرة التاريخية والحسّ الشرعي والوعي الاجتماعي يستطيعون وضع كثير من النقاط على الحروف ، وإن كنا نسلم أن بعض الحروف ليس له نقاط!!.

****

" كيف نبني الموضوعية "

1 –إن بداية الرقي في سلم الكمال لا تكون إلا من خلال الشعور بأننا لسنا في آخر مراقيه ، فالذين يشعرون أنهم موضوعيون لا يمكنهم أن يستفيدوا شيئا من جميع ما

قلناه ، وهم ليسوا بحاجة إلى شيء منه ! إن علينا أن ندرك أن الموضوعية ليست درسا نحفظه ، ولاهي شعارات نرددها هنا وهناك ، ولاهي نصائح نسمعها من هذا وذاك ، كما أن علينا أن ندرك أن الذين يريدون بناء الحس الموضوعي لا يتحركون في فراغ ، بل إن هناك من العقبات ما يعرقل كثيرا من مساعيهم!!.

إن الموضوعية إرادة وقدرة ، وعلم وعمل . ويترتب على هذا امتلاك فضيلة المرونة تجاه ما عرفنا ، وما لم نعرفه ، إذ قد تَجِدُّ معطيات جديدة تقلب كثيرا من معارفنا السابقة رأسا على عقب ! وتعني القدرة أيضا على تحديد علاقاتنا بشكل مقبول مع ما حولنا من أفكار وأشخاص وأحداث ، لأن ذلك سوف يعني تعاملا موضوعيا ، كما يعني انتظام ردود أفعالنا بشكل موضوعي .

2 -حتى نكون موضوعيين لابد لنا من التعمق في الدراسات التاريخية والنفسية والاجتماعية حيث تكشف لنا الدراسات التاريخية عن سنن الله تعالى في قيام الحضارات والدول وأفولها ، وتلك السنن ثابتة ثبات القوانين الفلكية والفيزيائية ومن خلال معرفة تلك السنن نميز المقدمات من النتائج ، وحينئذ نكون قد دخلنا من الباب الأمامي المشرع لفهم الواقع الذي لن نكون موضوعيين في التعامل معه ما لم نتمكن من معرفة مختلف العناصر الفاعلة فيه .

3 -الانفتاح عامل أساسي في تكوين العقل الموضوعي ، حيث إن الوعي بالحكم الحقيقي لقضية ما يتوقف في كثير من الأحيان على المقارنة والموازنة بينها وبين غيرها ، ليتخذ بشأنها القرار المناسب . وإن كثيرا من الناس يكوّنون لأنفسهم عالم خاصا يظنون أنه العالم كله ، ويُنضجون في عالمهم ذاك الكثير من المعايير الخاصة المتولّدة من بيئة نفسية وفكرية ذات نمط واحد. وهذا الصنف يقع ضحية للتحيّز والتعميم والتسرع في الأحكام ، وعدم القدرة على الرؤية المتوازنة ، وتكون قدرتهم على التكيف محدودة مما يجعل حياتهم عبارة عن صراع مستمر مع ما حولهم !!.

4 -لا موضوعية بدون تضحية ، ففي المجتمعات المريضة تكثر الإنجازات غير المشروعة وتوضع في الظل حقائق وإنجازات رائعة نتيجة الهوى أولا ، والجهل ثانيا ، وحينئذ فإن على الذي يريد أن يكون موضوعيا أن يضحي بأشياء كثيرة ، فإذا كان المجتمع مصابا بمرض تمجيد الذات فإن الموضوعيين سوف يعرضون أنفسهم لإعراض المجتمع عنهم ، واتهامهم في حالات الأزمات بالتآمر مع العدو ، وبثّ الدعاية له !!

5 -إذا كان الانغلاق يعني (اللاموضوعية) فإن الحوار يعني الانفتاح الواعي على الآخرين ، والحوار ظاهرة اجتماعية ، إذ هو من أفعال المشاركة التي لا يمكن للفرد أن يقوم بها وحده ، ولكن الخوف والشّك يدفعان المرء في كثير من الأحيان إلى النّأي عن هذه الظاهرة !! ومع أن الحوار يتخذ في بعض تجلياته الأساليب الصامتة التي لا يمكن إيقافها أو حصرها ، إلا أن عند الإنسان قدرة على فرز المقولات التي تعطل تفاعله مع الآخرين !. في هذه المنطلقات غفلة عن حقيقتين هامتين :

الأولى : أن المطلوب من الحوار لا يشترط أن يكون توحيد الرأي دائما ، وإنما المطلوب هو شرح وجهة نظر الأطراف المختلفة لبعضها بعضا ، أي أن يُريَ كل طرف الطرف الآخر مالا يراه . وإذا ما أدّى الحوار إلى تضييق شقّة الخلاف

فإنه يكون قد أدّى كثيرا من المطلوب . ومن ثمّ فإن وحدة الرأي في كل صغيرة وكبيرة – لاسيما فيما هو مناط للاجتهاد– ليست ظاهرة صحية دائما ، فالتنوع المؤطّر مطلوب كالوحدة .

الثانية : أن العلم الذي لا تسبقه رؤية ناضجة معرض للانحراف ، كما أنه معرض للإصابة بأزمات واختناقات لا يخفف من غلوائها إلا الفكر النيّر القادر على إيجاد بدائل وتوافيق جديدة ، وهذا يسهم فيه الحوار بنصيب كبير .

6 –من العسير أن نكون موضوعيين إذا ما نحن أصغينا إلى كل ما هو شائع من أفكار وآراء وعادات ، لأن كثيرا منه لا يكون شيوعه نتيجة جدارة ذاتية ، فقد تمر الأمة بمراحل صعبة في تاريخها ، وهذه المراحل تفرز عددا كبير من المقولات التي قد تصبح أمثالا سيّارة دون أن تعرف الأسباب والظروف التي أوجدتها . وهناك سلطان اسمه : القديم ، حيث يميل أكثر الناس على منح كل قديم مكانة خاصة ، كما أنهم ينظرون إلى الأفكار الجديدة كما ينظرون إلى الفتى الحَدَث الذي لم يبلغ النّضج ! وهذه نظرة غير موضوعية ، وقد جاء الإسلام لاجتثاثها من جذورها حين عاب على أولئك الذي يقبلون ما انحدر إليهم من آبائهم من عقائد وأفكار دون أدنى وزن لها أو تمحيص (**وإذا قيل لهم اتبعوا ما أنزل الله قالوا بل نتبع ما ألفيا عليه آباءنا أولو كان آباؤهم لا يعقلون شيئًا ولا يهتدون**)

هذه بعض الأفكار التي تساعدنا على تنشيط حركة الفكر لدينا ، وتجعل تفكيرنا أقرب إلى الموضوعية ، كما تساعدنا على إيجاد مركب نفسي وعقلي يرى الأمور على ما هي عليه ، ويتعامل معها كذلك .

****

انتهى الكتاب